شلي

[سيبقى شعرك ينبوع الأرواح الظامئة ، لأنك روح ظامئ]

للأستاذ محيي الدين السامرائي

بعض العباقرة لا نكاد نفهمهم الفهم الدقيق النافذ ، إلا إذا فهمنا أطوار حيواتهم فربطها بتجاربهم الميتافيزقية الخفية ، والاختلاجات النفسية ، لندرك ما وراء الحس في حياة كل عبقري من صدام وصراع.

وشلي أحد أولئك الذين تعيننا ترجماتهم على كشف البواعث والولائد في أطباق نفوسهم القصية إذا ما أراد أحدنا درس واحد منهم دراسة عميقة ، يقوم أساسها على الفهم الحي للعنصر الوجداني الدفين المستتر في قرارة كل نفس ، ليخرجه إلى عالم النور .

وإذاً ، فقد ولد هذا العبقري الثائر في الرابع من أغسطس عام ١٧٩٢ في ورشهام ، بين الأحراج النضرة والمراعي الجميلة ؛ فنشأ في أحضان الطبيعة القروية الساذجة ، فاستشف مكامن الروعة من الكون بعينين ناعستين « كأنما أثقلهما وسن حالم عميق » ، كما يقول أحد نقاده المعاصرين . ثم سافر حدثاً ليلتحق بكلية (إتون) باكسفورد ، فبرم من تقاليدها المدرسية الرتيبة[1] ، وحاول مراراً التخلص منها ، ولكن إرادة والده حالت دون ذلك ؛ إلى أن نشر رسالة عن « ضرورة الإلحاد » وذلك عام ١٨١١ ، هاجم فيها العقائد والأديان ، وسخر من جميع المثل السائدة في عصره ، وبشر بضرورة تحطيم اللاهوت المسيحي وبحجته ؛ فما كان من الجامعة إلا أن أقصته عنها ، فغادرها وفي نفسه جزء عميق من السخرية والسخط اللذين أثارها بيدية من الأساتذة ورفاقه الطلاب . وهنا فعل الكبت فعله العجيب في مطاوي هذه النفس الحساسة النزوع . ومنذ هذا الوقت مضى طليقاً ينظم الشعر ويقرأ الميثولوجيا اليونانية والآثار الكلاسيكية ، ولا سيما أفلاطون وأسخيلوس اللذين

(١) اختارها الأستاذ الزيات مقابل الكلمة الفرنجية routine

أعجب بهما كثيراً ، وصاحبهما طوال حياته ؛ فأشربت روحه هذه الثقافة الحية المفعمة بدوافع الفن والحياة . وبقي يتنقل بين أقطار أوربا بعد أن ودع انجلترا إلى غير رجعة ، حتى وطئت قدماه أرض إيطاليا الجميلة ، فاتخذها مقراً له ، بصحبة زوجه ابنة الفيلسوف الإنجليزي وليم كودون ؛ وهنالك استكمل تكوينه الفني المدهش فبقي يبدع الروائع الشعرية السامية دراكاً حتى وافته المنية غريقاً في ليجهورن على شاطئ سبيزا وذلك في الثامن من (يولية) عام ١٨٢٢ وقيل بل مات منتحراً أثر اضطراب نفساني أصابه ، يأساً من حياته المترعة بالآلام والأوصاب . فأحرقت جثته في حضرة صديقه العظيم بيرون ، ودفنت بقاياه ، حيث كتب على قبره باللاتينية : « هنا يرقد قلب القلوب الشاعر بيرسي بيش شلي » وفي أسفل منها بيت من شعره يقول : « لقد عاش ومات وغنى وحيداً » .

وهكذا انتهت حياة هذا الشاعر المتوحد الغريب بفاجعة من أعنف الفواجع التي عرفها تاريخ الأدب الحديث

* * *

ما كان شلي ممن يأخذ بمخيلات عصره ، وتوافه بيئته ؛ فقد عاش ما عاش هائماً في أجواء نفسه ، وأقطار أوهامه ، « مأخوذاً بالسماء الكوكبية الساطعة بالأنوار » وبكل مظهر من مظاهر هذا الوجود الرحيب . فأثر ذلك تأثيراً عميقاً في روحه الفنية ، وطبعه بتلك الانطباعات المتسعرة التي اعتصرت روحه العبقري على أساس من الثورة والألم ، إلى جانب تشاؤم في الحساسية عميق ، أشعره بآلام العصر الذي يضطرب فيه ، وشاع في جوانب نفسه ميولاً متدفقة قوية ، ولكنها تتأرجح بين « الشواطئ الزرق البعيدة الحالمة » ، وبين « الجروف الصخرية الصماء »

فلخص ما يقوله الأستاذ الفيلسوف هوايتهيد فيه : أنه مؤمن بالعلم التجريبي يعالج الطبيعة ومظاهرها تحت ضوئه ، في الحين الذي يستند فيه إلى المذاهب المثالية الأخرى مثل : كانت ، بركلي ، أفلاطون

فهو مزيج من نوازع متباينة تتجاذبه ، فمن الناحية الواحدة نزعة إغريقية قوية تؤمن بالطبيعة وتقدسها ، ومن الناحية

الأخرى إحساس ديني عميق يربط مظاهر الوجود في وحدة كيانية واحدة Pantheism

« عندئذ اتحد الجسم بالروح
وعرت كيان « أيانث » رعشة رقيقة
فأطبقت جفنيها المحتقنين بهدوء
وعند ذاك توقفت الأجرام المعتمة الزرقاء ... »[1]

ومن هنا كانت ابتداعيته الطامحة ، القلقة ، المشرئبة إلى مثل إنساني يحرر النفس ويعتقها من ربقة المادة ، وهدآته النفسانية المحلقة في عالم الأحلام : عالم المثل الرفيعة ، حيث الحقائق متلاحمة يعروها الغموض . فشعره صورة صادقة للرومانتيكية التي تغلب الإبهام obscurity على الوضوح ، ولو أنها لا تمت إلى الرمزية بصلة ما . فهي تسبغ صفة الجلال sublimity على كل شيء ، وتنصر الباطن من الظاهر ؛ فهي « رومانتيكية صوفية » بالمعنى الدقيق . وأكبر مظاهرها ، ذلك الطرب الساذج — الذي يقرب من البلادة — لغرائب الطبيعة ، والتمجيد المنيف لصور الوجود ، الذي يذهب بنا إلى حالة انقياد روحي شديد ، هي من أسرار الطلاقة الفنية في شعره . ويظهر هذا الأثر واضحاً في قصائده الأخيرة : القبرة ، وانتصار الحياة ، وأبيسكديون التي حار النقاد فيها ، ومنظومتي هيلاس وبرمنيوس ، التي يصور فيها الجبروت الإبليسي في شخصية البطل الخرافي بريشة تفوق ريشة ملتون في تصوير إبليسه

وفي الطور الأخير من حياته تأخذ « صوفية شلي الرومانتيكية » شكلها الأخير ؛ إذ يخضع للقوى اللاواعية السلبية في النفس ، فيستشعر الألفة والانسجام في صلب الوجود العام ، ويدرك أن هناك عقلاً سامياً وراء كل شيء ، تترقف السعادة الدائمة بالاتحاد الحي به — كما يعبر الصوفيون — بعد أن أنكر ذلك من قبل . وتحت تأثير هذا الشعور الجديد في كيانه ، نظم أغنيته الفذة أبيسكديون ، التي هي « نشيد باطن » لتلك الروح التواقة لذلك الحب المثالي السامي ، ولو أن فيها بعض الأثر من شلي القديم . وقد يخطىء من يظن أن شلي هنا ، يبحث عن الحب الحسي الأرضي ؛ فما الحب الذي يفتقده إلا الحب الروحي المشرق في المثالية الزاخرة بأحفل العواطف والأشواق ، حيث العناق المكين بين الزائل الفاني والخالد الباقي ... « كل شيء يحول إلا إياك أيها الحب ... »

والآن استمع لشلي صاحب « ضرورة الإلحاد » ، ينشد في آخر سنيه على لسان « النبي محمد » في افتتاحية منظومته السامية هيلاس إذ يقول :

أسرعوا واملأوا الهلال الباهت
بالأنوار الحادة ، كتلك التي شقت عتمة ذلك
الليل المسيحي الذي انسحب إلى الغرب
حيث امتطى القمر المشرق صهوة النصر ...
ألا فلتحل اللعنة على أولئك الذين دينهم الإشراك وتقسيم
الإله الأعلى المتعالي ...

فشعره — كما يبدو لأول وهلة — مزيج من الرومانتيكية الجامحة والتصوف الرزين ، مزيج من الأنوار والظلال ، ومن العقل والجنون ؛ فخياله المحلق النفور قد عصف بكل الفواصل الأرضية ، فانقطعت الصلة بينه وبين أكثر القراء . حتى أن النقادة الكبير « ماثيو أرنولد » أطلق عليه لقب « الشاعر السماوي المجنون » ، إذ عاش حالماً بعوالم أثيرية قصية ، مفعمة بأنفاس المحبة والجمال ، (محدقاً بشفق الحياة النائم) — وقد كرر هذا المعنى في شعره كثيراً —

ألا نهيم يا حبيبتي
نحو غابة الشفق ،
حيث يتعالى القمر الوضيء ؛
وهنالك سأهمس إليك
في هواء الليل البارد
بما لست قادراً على البوح به في النور ؟ »

ولقد اختلف النقاد في تقدير ملكة شلي الفنية اختلافاً كبيراً ، فهاجمه كثير منهم ، أمثال صديقه الخائن « هوج » و « بيكوك » وغيرهما . بينما انتصر له النقادة الكبير ماثيو

(١) يحدثنا الأستاذ « ول دورانت » صاحب كتاب قصة الفلسفة : أن شلي شرع فعلا يترجم كتاب « إسبينوزا » « رسالة عن الدين والدولة » ، وهي أهم مؤلفات فيلسوف وحدة الوجود الأكبر بعد كتابه « الأخلاق » . وقد استشهد كثيراً بأقواله في الملاحظات الفلسفية التي وضعها لقصيدته هذه التي عنوانها « الملكة ماب »

أرنولد وأنصفه من أعدائه . كما أن الكاتب الكبير لورد ماكولى كتب عنه يقول : إن شعر شلى لم يكن فناً وحسب ، إن هو إلا وحى . أما البروفسور إيفور إيفانس أستاذ الأدب الإنجليزى فى جامعة لندن ، فقد رفعه إلى رتبة النبوة فى شعره ، واعتبره من أصحاب الرسالات المثلى فى تاريخ البشرية

ومهما يكن من رأى النقاد فيه ، فالحقيقة أن فيه عنصراً غير عادى ، هو الذى حمل معاصريه على أن يروا فيه — على رأى ستيفن سبندر — رجلاً هستيرى المزاج ، منحرف السريرة ، مزيجاً من الغول والإنسان ، حتى أن رفاقه فى المدرسة زروا عليه شذوذ سلوكه واندفاعاته الطائشة ، فلقبوه بـ « شلى المجنون » ، كما أن مؤسسة (شانسرى) قررت حضانة ابنته من زوجه الأولى ، بحجة أنه رجل مهووس مخبول ، ليس أهلاً لإعالة إنسان . وفى ذلك — كما يبدو لنا — مظهر من مظاهر العبقرية السامقة التى لا تخضع لمقاييس الناس وموازينهم . أو ليست العبقرية — قبل كل شيء — انطلاقاً من كل قيد ، وشروداً عن كل مصطلح ومألوف ؟

أما عقيدة شلى الفلسفية ورسالته التى بشر العالم بها فلها قصة طويلة لا نستطيع جلوها ناصعة إلا عن طريق الدراسة الدقيقة لشعره فى مختلف أطواره الروحية . مع أنه — بالحقيقة — ليس صاحب فلسفة متبلورة ناضجة ذات حدود ، إن هى فى مجموعها إلا تجارب نفسية متباينة ذات أصباغ مشوشة غامضة

فشلى يرى ظواهر الوجود سيلاً مندفعاً من أزل الآزال إلى أبد الآباد لأى لحظة واحدة من الزمان . فهو — إذا شئنا الدقة الفلسفية — خلق مستمر ، وامتداد من عالم الحرية إلى عالم الحتمية والضرورة .

« الكون السرمدى لهذه الأشياء
يتزاكض خلال العقل ، ويضرب بأمواجه الخاطفة .
آونة قاتمة ، وآونة ملتمعة ؛ حيناً تقبض النفس ،
وحيناً تنيرها ... ...
كجدول رقراق يأخذ سمته ، خلال الغاب الكثيف
وبين الجبال ، حيث الشلالات المتدافعة حولها إلى الأبد ،
وحيث الغاب والريح يتصارعان ؛ يتدفع النهر الكبير
دائباً على الصخور بلا انقطاع ، وهذه الكائنات — وفيها الإنسان — « كسحب تنشى القمر الليلى ،
وسرعان ما تتقشع ، فتلتمع ، ثم ترتعش ،
فتفرى الظلام بلألائها ! ثم يطبق الليل
ثانية ... فتضيع هاتيك السحب إلى الأبد .
... ألا إن أمس الإنسان لا يشبه غده
فهو لن يعانى غير التغير المستديم . »

أما حيال ذلك السر المحجب القديم : سر هذا الوجود ، ماذا يحول ؟ وأيان منتهاه ؟ فكثيراً ما وقف واجماً مبهوتاً ، لا يرى غير ظلمات يركب بعضها بعضاً .

« يا أشباح الموتى ! ألم أسمع عويلك المرتفع مع أنفاس الليل الدائرة ، حيث تشتد العاصفة على الأثير المظلم
وعلى الريح الرخية يتلاشى هزيم الرعد ؟
ألا ما أكثر ما وقفت على قمة جورا المظلمة العابسة فوق الوادى المنفرج فى الحضيض .
وما أكثر ما صمدت أمام ثورة إعصار الليل القارس
إذ يحوطنى ، كما يبدو لى ، رجع أصداء الموت الهامسة ! »

فالموت يطارد جميع الكائنات « بأقدام لاهبة وأنفاس باردة صفراء » ، حتى الشموس والأفلاك يصيبها الخمود والاندثار :

« أخبرنى أيها الكوكب ذو الأجنحة النورانية
المسرعة بك فى دورانك المشتعل ،
فى أى من كهوف الليل ستنطوى أجنحتك
وأنت أيها القمر الأشيب الهزيل
فى أية أعماق من الليل أو النهار
تطلب الراحة والسكون ؟ ... »

لا ! لن يقوى أمام ناموس الفناء غير « ذلك النور السماوى المؤتلق إلى الأبد » ؛ أما الظلال الأرضية « فتتناثر بدداً تحت وطء الموت ... بينما تبقى روح أدونيس مشتعلة فى أعمق أطباق السماء ككوكب هاد حيث الخالد الباقى . »

... وأخيراً طوته ظلمة الموت بعد أن ترك للعالم تجربة حية صادقة ، وسجل لنا اعترافاً روحياً طويلاً مكتوباً بدم القلب

(بغداد) محيى الدين السامرائى